الدرس الخامس

سر العطاء بغير حدود!!

﴿اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾.. وهنا يكمن السر!! وأيّ سر هذا الذي يكمن هنا؟! إنه سر الثبات.. وسر البلاء والتضحية.. سر العطاء بغير حدود.. وسر الإقدام بغير قيود أو شروط!!

سر ثبات ذلك الجسد العاري.. الملقى على رمال الصحراء المتوقدة.. والشمس في كبد السماء، ترسل أشعتها الحارقة.. وتجثم عليه صخرة عظيمة.. وتلهبه السياط من كل جانب.. وهو لا يزيد على أن يقول- وبصره مشدود إلى السماء، متوجه إلى من بيده ملكوت السماوات والأرض.. الذي يقع عليه وحده الأجر والثواب-: أحد.. أحد.. أحد.

سر ذلك الثبات العظيم.. التي تحلت وامتازت به تلك الأسرة الكريمة.. رغم ما نزل بها من بلاء وعذاب.. وحل عليها من سخط وغضب الفئة الباغية الكافرة.. فلا تتحول أنظارهم المشدودة إلى السماء.. إلى أن يقضي الزوج وزوجته نحبهما.. آمنين مطمئنين.. إلى حيث وعدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: اصبروا آل ياسر فإنّ موعدكم الجنة.

إنه السر الذي حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يربي عليه صحابته الكرام.. الذين لم يعد أحداً منهم بمنصب أو جاه أو مال بعد أن يمكن الله لدينه.. بل لم يكن في وعده لهم يزد على ما قاله لآل ياسر، وهم في أشد مواطن البلاء والفتنة..

فذلك هو سر شجاعة ذلك الفتى الذي نام في فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فداءاً له في يوم هجرته!!

إنه سر منبع ذاك النشيد الرائع.. نشيد الرجال الأبطال في ساح البذل والتضحية والفداء.. في ميادين الامتحان والابتلاء.. هذا النشيد الذي ردده بطل عز وجوده وهو في طريقه حيث يصلب.. إلى حيث يجود بروحه ونفسه رخيصتين في سبيل الله:

ولســـــت أبالي حين أقتل مســـــلماً

على أيّ جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإلـه وإن يشـــــــأ

يبارك على أوصـــــال شـــــلو ممزع

إنه سر وجود تلك المواقف الشجاعة.. التي سجلها التاريخ بمداد من ذهب.. وأحرف من نور.. تلك التي لقن فيها حاملو هذا السر: كيف يكون المؤمن بالله عزيزاً قوياً.. ثابتاً لا يتزعزع، شامخاً لا ينحني رأسه.. ولا تركع هامته.. ولا تسجد جبهته.. مهما عظم سلطان الذي يقف بين يديه.. ومهما بلغت عظمته وقوته.. ومهما اغتر به الجهلة من الناس، فتسابقوا في مدحه وثنائه.. وتقبيل قدميه ويديه!!

إنه سر تلك المواقف العظيمة.. التي صنعها حاملو هذا السر العظيم.. توضع الأموال بين أيديهم.. وتعرض عليهم المناصب والمراكز.. فيديرون لها ظهورهم.. ويركلونها بأقدامهم.. لما علموا أنها ثمنٌ بخس لشرائهم.. فهذا أحدهم وقد وضعت بين يديه صرة كبيرة من المال.. يقول لحاملها بهدوء وسكينة: يا بني عد بنقود سيدك وردّها إليه.. وقل له: إن الذي يمدّ رجله لا يمد يده!! وسبب هذا القول أن ذلك

الحاكم كان قد دخل المسجد من قبل وكان يجلس فيه هذا الداعية المؤمن.. وكان يمدّ قدمه.. فهب الناس وقاموا لاستقبال الأمير.. وبقي الداعية في مكانه ماداً قدمه، فغاظ هذا الأمير.. فأرسل إليه النقود على مرأى من الناس كي يذله بها فكان الجواب ما قرأت.. إنه أشدّ صفعاً من سابقه!!

وهذا آخر من هؤلاء بعد أن قال له هارون الرشيد: خذ من مالي ما يكفيك رزقاً –ولعيالك.. يبتسم ويقول: ويحك يا هارون ! أتظن أن الله يرزقك وينساني؟! وهذا آخر بعد أن عرض عليه عبد الملك بن مروان إن كان له ثمة حاجة فيقضيها له، يقول: يا أمير المؤمنين مالي إلى غير الله حاجة!!

وهذا آخر يصيح في موطن تهديد وترهيب. موطن تنخلع فيه القلوب.. وتبلغ الحناجر.. يا مهدي!! متى كانت آجال الناس بغير يد رب الناس؟! يا مهدي!! لو كنت تملك موتاً او حياة، فامنع الموت عن نفسك!! وهذا آخر في ذات الموطن في مجلس الحجاج يصدع بالحق قائلاً: يا سبحان الله!! إن صدقناك أغضبناك! وإن غششناك أغضبنا الله.. والله لغضب الأمير أهون علينا من غضب الله، وأفوض أمري إلى الله!

وأيّ نفس هذه النفس؟! النفس العزيزة الأبية.. الثابتة الواثقة.. الآمنة المطمئنة.. التي إن أصابها خير شكرت.. وإن نزلت بها مصيبة صبرت.. فلا تخيفها مواطن الجزع.. ولا تحركها وتستخفها مواطن الطمع.. فلا يثنيها عن ثباتها.. أو يزحزحها عن إيمانها.. تهديد أو وعيد.. بل إن المحن تصقل أصحابها.. ويشتد بها عودهم، ويزداد إيمانهم وثباتهم.. فيخرجون منها كما يخرج الذهب من مناجم النيران أشد لمعاناً وتوهجاً!!

وكذا فإن المواطن التي يسيل لها لعاب الكثيرين.. فتضيع المبادئ.. وتنسى القيم.. وتذهب الشعارات.. ويتبخر كل شيء.. ويصبح فيها هباءً منثوراً.. حين تلوح في الأفق بعض الوعود بمتاع من الدنيا زائل.. وتاريخنا ماضيه وحاضره خير شاهد على الكثيرين من أولئك الذين استهوتهم المناصب.. وجذبتهم الوعود.. واسترقتهم الشهوات والملذات.. بعد أن كانوا.. فباعوا دينهم بعرض زائل.. وغيّروا وبدلوا!! نعم إن هذه المواطن ببريقها الساحر.. وسرابها الخادع.. وأضوائها الباهرة.. لا تزيد تلك النفس التي سكنها ذاك السر العظيم.. إلا سمواً وارتفاعاً.. وعزة وشموخاً.. وإعراضاً.. وزهداً.. وإقبالاً على الله تبارك وتعالى!!

أخانا الحبيب!! فكلما كان النظر مشدوداً إلى أعلى.. كلما ازدادت الروح نقاءً وعلوا... والنفس صفاءً وسموا.. عند ذلك فقط يزداد عطاؤها.. ويعظم إقدامها.. وتصنع المواقف الخالدة التي لا يصنع مثلها من اشتد إلى الأرض.. وأثقلته قيودها.. وأرهقته أعباؤها.. وارتبط بها برباط انتظار الأجر والثناء من البشر!!

ومن هنا فإننا ندرك أهمية هذا التنويه وهذه الاشارة لهذا الأمر في هذا الموقف.. من هذا الداعية الرباني.. حين بين أن هؤلاء الرسل عليهم السلام لا ينتظرون تلقاء دعوتهم وعملهم هذا من أحد جزاءا أو ثواباً.. أو حتى كلمة شكر أو ثناء.. بل هم مهتدون إلى أن الأجر والثواب والجزاء لا يكون إلا من الله تبارك وتعالى.. ولهذا التنبيه والتنويه في هذا الموطن أهميته.. أهميته من حيث ثبات الرسل وعدم تخليهم عن دعوتهم مهما اشتد الموقف، وادلهم الخطب.. فعبثاً تحاولون -يا هؤلاء- صرفهم بالترغيب أو الترهيب.. لأن جزاءكم ماذا سيكون مقابل جزاء الله؟! ووعيدكم وارهابكم ماذا يكون مقابل وعيد الله تبارك وتعالى؟!

وأهميته من ناحية المدعوين.. فحين يرون أنّ الداعية معرض عمّا عندهم.. زاهدٌ بما في أيديهم.. لا شك أن هذا سيترك أثراً في نفوس العقلاء منهم ولو بعد حين!!

«فالذي يدعو مثل هذه الدعوة، وهو لا يطلب أجراً، ولا يبتغي مغنماً.. إنه لصادق، وإلا فما الذي يحمله على هذا العناء إن لم يكن يلبي تكليفاً من الله؟ ما الذي يدفعه إلى حمل هم الدعوة؟ ومجابهة الناس بغير ما ألفوا من العقيدة؟ والتعرض لأذاهم وشرهم واستهزائهم وتنكيلهم، وهو لا يجني من ذلك كسباً، ولا يطلب اجرا؟»[1] هذا ما ستنطق به ألسنة عقلائهم وأصحاب الفطرة السليمة منهم حتماً.

ولقد استخدم هذا السلاح الخطير – وما زال يستخدم – في استمالة الرسل من قبل والدعاة قديماً وحديثاً وصرفهم عما يدعون إليه.. كما فعلت قريش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين عرضت عليه الملك.. فيصبح ملكاً للعرب.. وسيداً لهم.. والمال حتى يصبح أغناهم وأكثرهم مالا.. والنساء بتزويجه أكثرهن جمالاً وشرفاً ومالاً.. لكن النبي صلى الله عليه وسلم الذي أراد ان يعلم اتباعه من بعد كيف يكون الثبات؟! ومتى تكون المفاصلة؟! ومتى تقطع سبل الحوار وتقال كلمة الفصل؟! لم يتردد لحظة واحدة في أن يعلن على الملأ ويقول كلمته الخالدة لعمه أبي طالب رسول قريش إليه، الكلمة التي زادت عظمة ومكانة رسول الله في

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٩٦٣.

نفس عمه أبي طالب:

«والله يا عمّاه لو وضعوا الشمس في يميني. والقمر في يساري. على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

وحين وصلت هذه الكلمات المدوية الصريحة الواضحة، الناطقة بقوة وصلابة ثبات صاحبها على ما يدعو إليه.. إلى مسامعهم.. انقطع رجاؤهم وخاب مسعاهم وأملهم.. وتيقنوا أنهم لن ينالوا منه ومن دينه بهذا الأسلوب.. فلا بد إذاً من البحث عن غيره من أساليب الترهيب والتنكيل والمقاطعة!! وما عرفوا أن الابتلاء والامتحان بالخير في اغلب الأحيان يكون أعظم وأشد من الابتلاء بالشر؟!

***

وعلى الدعاة إلى الله تعالى أن يعوا هذا الدرس جيداً، وأن يطيلوا فيه النظر والفكر ويعلموا أنه درس ذو شقين: الأول: على الداعية ان يتوجه إلى الله تعالى.. فيرتبط به وحده برباط الأجر والثواب.. وهي مسألة حساسة بل في غاية الخطورة والأهمية.. فبالاضافة إلى ما ذكرنا من أنها تكون دافعاً قوياً على العمل والثبات والبذل والتضحية.. فإنها

كذلك يترتب عليها القبول وعدمه... فمن خلصت نيته.. وصفت سريرته، وصدقت عزيمته بالتوجه إلى الله تعالى.. عظم عمله، وزاد أجره، وقوي ثباته، وكتب عندالله من المقبولين.. وإلا فعمله مردود عليه.. (فمن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو أمرأة ينكحها فهجرته لما هاجر إليه) والله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك!! ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه». وخرج النسائي بإسناد جيد عن أبي امامة الباهلي رضي الله عنه: «أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا شيء له، فأعادها عليه ثلاث مرات يقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا شيء له ثم قال: إنّ الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه».

والثاني: على الداعية أن يكون ورعاً تقياً زاهداً فيما عند الناس.

فمن زهد بالدنيا أحبّه الله ومن زهد بما عند الناس أحبه الناس، قال صلى الله عليه وسلم: «أزهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبّك الناس».

لا ينظر إلى مَنْ أنعم الله عليهم نظر الحاسد أو نظر المتحسر.. ممتثلاً أمر الله تعالى: ﴿ولا تمدّن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾ طه، بل إن التحلي بهذا الخلق يزيد من حبّ الناس واحترامهم للداعية!! وهنا أود أن استرسل قليلاً، كي أقف مع بعض الأخوة الدعاة العاملين في حقل الدعوة إلى الله تعالى، وقد وفقهم الله أن هدى بعض الشباب على أيديهم.. فمن حبهم له وحرصهم عليه.. تجدهم في زيارته صباح مساء.. يرهقونه بتبعات الزيارة من ضيافة وغيرها كأخذه من بين أبنائه وزوجه.. ولهذا الأمر خطورة على ثبات المدعو هذا، فقصد أولئك تقوية أواصر الأخوة، وهو قصد لا شك أنه محمود ومطلوب.. لكنهم أخطأوا الوسيلة.. وإني اعرف الكثرين من أولئك المدعوين الذين أخذوا يتهربون من الزيارات والاستقبال، بل ومن حضور صلاة الجماعة كي لا يحرجوا مع إخوانهم.. بل إنّ بعضهم قد شكا من ذلك وصرح به في جلسة عتاب بعد انقطاع!! فيا أخي الداعية احرص إن زرت أخاً تدعوه إلى الله على أن تختار الوقت

المناسب أولاً وأن لا تطيل الجلسة ثانياً وأن لا تكلفه ولو القليل من الضيافة وإن أصر على تقديمها تكتفي بتناول القليل، مع بيان أنك ما زرته من أجل هذا، وأن أكرم ضيافة لك هي استجابته لداعي الرحمن بالالتزام بمنهجه وصراطه المستقيم!!

وهذا الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله، يحدثنا عن نجاح تجربته الدعوية في القهاوي مبيناً أنّ درسنا هذا كان أحد ركائز هذا النجاح بقوله: «ولقد كان شعور السامعين عجيبا، وكانوا ينصتون في إصغاء، ويستمعون في شوق، وكان أصحاب المقاهي ينظرون بغرابة أول القول، ثم يطلبون المزيد منه بعد ذلك، وكان هؤلاء يقسمون بعد الخطبة أننا لا بد أن نشرب شيئاً، أو نطلب طلبات، فكنا نعتذر لهم بضيق الوقت، وبأننا نذرنا هذا الوقت لله، فلا نريد أن نضيعه في شيء، وكان هذا المعنى يؤثر في نفوسهم كثيراً، ولاعجب فإنّ اللّه لم يرسل نبياً ولا رسولاً إلاّ كان شعاره الأول: (قل لا أسألكم عليه أجرا) لما لهذه الناحية العفيفة من أثر جميل في نفوس المدعوين»[1]

***

(١) مذكرات الدعوة والداعية، ص٥٥.

وزيادة أخي الداعية في بيان أهمية هذا الدرس، فإنّا نذكرك بما كان يقوله الأنبياء والرسل لأقوامهم، فهذا نوحٍ عليه السلام قال لهم: ﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجريَ إلاّ على اللّه﴾ هود ٢٩، وفي موطن آخر يخاطب قومه وقد تولوا وأعرضوا: ﴿فإن توليتم فما سألتكم من أجرٍ إنْ أجريَ إلا على الله وأمرتُ أن أكون من المسلمين﴾ يونس٧٢.

وهذا هود عليه السلام يقول لهم: ﴿يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجريَ إلاّ على الذي فطرني أفلا تعقلون﴾ هود ٥١، وهذا صالح عليه السلام يقول المقولة نفسها لقومه: ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على ربّ العالمين﴾ الشعراء ١٤٥، وهذا لوط عليه السلام يقول لقومه المقوله نفسها أيضاً: ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري الاّ على رب العالمين﴾ الشعراء ١٦٤، وهذا شعيب عليه السلام يردد المقولة نفسها: ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على ربّ العالمين﴾ الشعراء ١٨٠.

إن تكرار هذه المقولة على لسان الرسل عليهم السلام، وحرصهم على بيانها وتوضيحها لقومهم، والتركيز على ذكرها في كتاب الله مرات متعددة ليدل دلالة واضحة بينة على أهمية هذا الأمر في الثبات والعطاء، كما سبقت الإشارة إلى ذلك!!

وبقي أن تنظر في هذا الموقف وتتدبر معانيه، وتسمع ما قاله المؤمنون حين ظهر(قارون) على قومه بكامل زينته وثروته، وما قاله غيرهم لترى البون الشاسع والفرق الكبير بين الفريقين؛ الفريق الذي امتلأ إيمانا وعلماً وحكمة، والفريق الذي تبهره المظاهر وتخدعه، الذي ارتبط بالأرض.. ﴿فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم﴾.

أما الذين يريدون الآخرة فماذا قالوا رداً على هؤلاء المساكين الغافلين: ﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلّقاها إلا الصابرون﴾ القصص٧٩، ٨٠.